

دور المؤسسات السياسية والعسكرية الفرنسية في عملية الاستشراق بالجزائر

The role of French political and military institutions in the process of orientalism in Algeria

العود محمد الصالح¹

¹ جامعة عبد الحميد مهري قسنطينة "2"، laouddj@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2023/05/13 تاريخ القبول: 2023/05/23 تاريخ النشر: 2023/06/04

الملخص:

بعد تقديم العديد من النتائج لتعريف الاستشراق حاولنا خلال هذا المقال الحديث عن نقطة مفصلية في موضوع الاستشراق وهو تحول البحوث الغربية من أعمال علمية يعتقد أنها بريئة إلى مشاريع مختلفة سياسية واقتصادية وعسكرية تهدف إلى تجسيد كل أبحاثهم على أرض الواقع، لكن ليس في أراضيهم بل بأراضي المستعمرات وخاصة العربية منها مثل المشروع العسكري لـ "باراداز" (Baradez) والمؤتمر الدولي للتمور بمدينة بسكرة سنة 1931.

يمكننا من خلال هذين المثالين أن نوضح بأن هذه المشاريع ليست بريئة كما يعتقد لكنها مشاريع استعمارية تقدم حلولاً سهلة وطرقاً بسيطة تسمح باستغلال المستعمرات إلى أبعد حد.

الكلمات المفتاحية: الاستشراق، خط اليمس، بسكرة، باراداز، التمور، الري، الخنادق الأفريقية

Abstract:

After presenting many results for the definition of Orientalism, we tried from this article to talk about a pivotal point in the subject of Orientalism, which is the transition of Western research from scientific works that are expected to be innocent to various political, economic and military projects aimed at realizing all their research, but not in their lands Rather,

in the lands of the colonies, especially the Arab ones, such as the military project of Baradez and the International Conference on Dates in the city of Biskra in 1931.

Through these two examples, we can make it clear that these projects are not as innocent as they appear, but they are colonial projects that offer easy solutions and simple methods that allow the colonies to be exploited to the fullest extent.

1. المقدمة:

عرف الاستشراق الانجلو فرنسي الحديث تطورا هاما في شتى ميادين البحث العلمي و في كامل تخصصاته، خاصة بعدما تدخلت حكومات هذين البلدين الاستعماريين في التوجيه والتدعيم المادي والمعنوي لكل الأبحاث التي من شأنها ان تجلب نتائج سياسية واقتصادية جديدة.

تحول الاستشراق تدريجيا من أبحاث علمية فكرية دعمت من طرف رجال الدين في بداياتها، إلى أبحاث تتضمن في طياتها مشاريع اقتصادية سياسية استعمارية تهدف إلى إيجاد حلول لكل العقبات التي من شأنها أن تقف أمام أهدافهم الاستراتيجية المتمثلة في السيطرة على أراضي بلدان العالم المتخلف واستنزاف خيراته إلى أبعد الحدود، بمجهودات بسيطة وخسائر قليلة.

تجسد التحول في الاستشراق من أفكار بريئة إلى مؤسسات اقتصادية عسكرية، ومن الأمثلة على ذلك المشروع العسكري الذي أنجزه الضابط الفرنسي "باراداز"، والذي كان يهدف إلى إحياء المشاريع الرومانية ببحث جوي دقيق أعاد به مكونات خط اللليمس الموريطاني وإحياء أفكاره لتكون نموذجا يحتذى به من أجل السيطرة على الدولة الجزائرية.

زودت المشاريع العسكرية بمشاريع اقتصادية عديدة مثل المؤتمر الاقتصادي الذي انعقد ببسكرة سنة 1931، والذي شارك فيه ثلة من العلماء والمفكرين، ومجموعة من الإداريين الفرنسيين. منح هذا المؤتمر مختلف الطرق

دور المؤسسات السياسية والعسكرية الفرنسية في عملية الاستشراق بالجزائر
والأساليب العلمية الدقيقة التي من شأنها أن تساعد على الاستغلال الأمثل
للأراضي الزراعية الصحراوية وخاصة منتج التمر.

لذلك حاولنا إمطة اللثام على هذين المشروعين عن طريق الاطلاع على
النتائج التي توصل إليها المؤتمر وإبراز الخلفيات السياسية المرجوة من ذلك.

2. مفهوم الاستشراق:

تناول الكثير من الباحثين مفهوم الاستشراق، محاولين في ذلك الوصول إلى
التعريف الشامل والكامل لأنه يعتبر ظاهرة واسعة ومعقدة ومتفرعة إلى العديد
من المفاهيم.

قبل التطرق لبعض التعاريف لمفهوم الاستشراق تجدر بنا الإشارة إلى من
هو المستشرق.

يرى البعض أن المستشرق هو من أدخل نفسه في أهل الشرق وصار منهم،
كما يرى البعض الآخر بأن المستشرق هو كل من يعمل بالتدريس أو الكتابة أو
يقوم بالبحث في موضوعات خاصة بالشرق، سواء كان في ذلك علم
الأنثروبولوجيا، أو علم الاجتماع أو علم التاريخ أو اللغة⁽¹⁾. (إدوارد سعيد، 1995،
ص44)

إذن فالمستشرق هو العالم المتخصص في معرفة الشرق وكل ما يتعلق
بإنتاجه الفكري. ولهذا يوجد العديد من التفسيرات لمفهوم الاستشراق:

الاستشراق لغة: كلمة مشتقة من الشرق، فيقال أشرق الشمس شرقا
وشروقا إذا طلعت⁽²⁾. (المعجم الوسيط، 1960، ص482)

أما اصطلاحا فجاء تفسير الاستشراق بأنه طلب علوم الشرق ولغاتهم
ومحاولة التمكن من كل معارفهم⁽³⁾. (يحيى مراد، 2004، ص5)

3. تطور مفهوم الاستشراق:

بدأ الاستشراق في أوروبا في عهد الإصلاح الديني، لهذا كان في بدايته يقوم على أكتاف رجال الدين المنصرين والرهبان⁽⁴⁾ (عبد المتعال محمد الجبيري، 2001، ص13)، كان في بدايته يأخذ ظاهرة البحث الأكاديمي بالمفهوم الضيق وذلك لاختصاصه بالميادين العلمية التقليدية وكل المعارف الفكرية، وزعما من الغرب يتم فيه تطبيق المنهج العلمي المحايد، و بالتالي التحلي بالموضوعية والاستقلال الفكري والحياد العلمي.

وإذا كان هذا هو الظاهر، فالباطن هو أسلوب تفكير يقوم على التمييز الوجودي والمعرفي بين ما يسمى "الشرق" وما يسمى "الغرب".

إذن ارتبط تطور مفهوم الاستشراق بالتقارب الحاصل منذ بداية القرن التاسع عشر بعدما استتب لفرنسا وبريطانيا السيطرة الكلية على مستعمراتها في الجهة الشرقية من العالم القديم⁽⁵⁾ (إدوارد سعيد، 1995، ص47). ليتحول إلى مؤسسات ذات نمو متسارع لها ارتباطاتها مع المصالح الاقتصادية والتجارية والاستراتيجية لدول أوروبا الناهضة. وهكذا كان التحول من المعرفة الأكاديمية إلى حركة مادية فعلية تهدف إلى تسهيل تطبيق المعرفة الأكاديمية على أرض الواقع أي التحول من الاهتمام إلى الاستغلال.

هكذا صار الحديث عن الاستشراق يعني الحديث أساسا عن المشروع البريطاني الفرنسي، الذي يهدف إلى استغلال الشرق إلى أقصى درجة لتعويض الخسائر السابقة التي تسببت فيها الحروب وعلى رأسها الحربين العالميتين الأولى والثانية من جهة، والهيمنة على الشرق وإعادة بنائه والسيطرة عليه من جهة أخرى.

دور المؤسسات السياسية والعسكرية الفرنسية في عملية الاستشراق بالجزائر

4. المؤسسات الفرنسية وعملية الاستشراق:

يتضح لنا التحول في الاستشراق من حركة فكرية إلى مؤسسات مادية في كثير من الأمثلة جسدها العديد من الشركات الاستثمارية التي تبنت تطبيق هذا المشروع، ولنا في ذلك مثالين الأول عسكري يتمثل في مشروع الضابط الفرنسي باراداز والثاني اقتصادي يتمثل في الملتقى الدولي بمدينة بسكرة 1931.

5. مشروع باراداز:

1.5. محتوى المشروع: يتمثل في البحث الجوي الذي قام به العقيد جون باراداز حول تنظيم التخوم الصحراوية خلال الحقبة الرومانية. طبع هذا العمل في جزئين بباريس خلال الثلاثي الثاني من عام 1949 بأمر من الحاكم العام للجزائر وبإشراف من مديرية الفنون الجميلة قسم التاريخ القديم والآثار.

طبع العمل في 3500 نسخة 200 منها خصصت للحاكم العام بالجزائر.

قام بمساعدة باراداز في هذا العمل كل من الرائد "بيشان" (Piéchant) والنيقيب "شنايدر" (Schneider).

دام هذا العمل مدة ثلاث سنوات كاملة، وانتهى بإنجاز كتاب من جزئين عنوانه "الخنادق الإفريقية" (Fossatum Africae) شمل أربعة محاور رئيسية وهي:

المحور الأول: طرق حديثة للبحث الجوي على مساحات واسعة.

المحور الثاني: التصوير الجوي الأثري.

المحور الثالث: الاكتشافات الجديدة بوادي القنطرة.

المحور الرابع: الخصائص الجغرافية العسكرية للتخوم الصحراوية ونوميديا(6) (باراداز، 1949).

تضمنت هذه المحاور العديد من الانجازات او النتائج العلمية يمكن إيجازها

فيما يلي:

2.5. النتائج العامة للمشروع:

- قاعدة عمل متينة وأكيدة تشكل نقطة انطلاق لأي مشروع.
- إنجاز خريطة طبوغرافية عامة على المنطقة.
- مسح مليون هكتار من الأراضي وتقديم بعض الطرق لكيفية استغلال هذه المساحات.
- تحديد أهم المسارات التي تصلح لإنجاز شبكة طرق.
- تحديد مناطق أثرية جديدة على منطقة عرضية تقدر بـ 750 كلم من الشمال إلى الجنوب وهذه هي المنطقة التي يشملها خط الليمس الموريطاني.
- دراسة وتحليل أساليب الري وكيفية تطبيقها على أرض الواقع.
- دراسة شاملة ووافية على منظومة خط الليمس الذي يعتبر تنظيماً عسكرياً وإدارياً ومنظومة للسقي وكل ذلك يشكل لنا كلاً متكاملًا بسيطاً في مظهره معقد في تركيبه، يصلح بشكل ممتاز لكي يكون حدًا فاصلاً بين الإمبراطورية والسكان المغاربة الذي لا يلبثوا أن يثوروا ويقاوموا كلما سنحت لهم الفرصة.
- إذن يمكن القول ان هذا المشروع العلمي أنجز لكي يسهل الكيفية التي يمكن للفرنسيين الاعتماد عليها من خلال الأهداف الاستراتيجية التي حققها الليمس الموريطاني.

3.5. الأهداف الاستراتيجية التي حققها مشروع خط الليمس:

- إضافة إلى الأهداف العسكرية التي سبق الإشارة إليها مثل إنجاز حاجز أمني يفصل بين الرومان والمغاربة وبالتالي تسهيل عملية المراقبة والتحكم في منطقة جغرافية حساسة.
- يوجد كذلك أهداف اقتصادية عمل الرومان على تحقيقها يمكن للفرنسيين الاستفادة منها مثل:

دور المؤسسات السياسية و العسكرية الفرنسية في عملية الاستشراق بالجزائر

- إنشاء مناطق زراعية في شكل أراضي زراعية مزودة بشبكة قنوات الري تمنح للجنود المتقاعدين الرومان كمكافأة لهم نظير أعمالهم في الخدمة العسكرية لسنوات عدة.

- استحداث واحات متعددة على طول خط الليمس تذر على الإمبراطورية بمنتجات زراعية وعلى رأسها التمور.

- إنجاز شبكة من الطرق ومراكز الراحة والمراقبة لتسهيل عملية التنقل العسكري والتجاري بين الشمال والجنوب من جهة و بين شرق و غرب خط الليمس من جهة ثانية.

- تسهيل عملية نقل الفكر الروماني الذي يدخل في نطاق رومنة المنطقة ككل.

- الاطلاع عن قرب على عادات وتقاليد القبائل الجيتولية بهدف إيجاد طرق ووسائل أسهل وأنجع للتحكم فيهم ورومنتهم.

6. المؤتمر الدولي للتمور 1931:

يعتبر هذا الملتقى مشروع علمي اقتصادي جرت فعالياته في مدينة بسكرة من 5 إلى 11 نوفمبر 1931، تم تنظيمه تحت الرعاية لأعلى سلطة للاستعمار الفرنسي والمتمثلة في الحاكم العام للجزائر وأشرف على المشروع شركة السكك الحديدية بالجزائر بالتعاون مع مديريات الأقاليم الجنوبية ومسؤولي الفلاحة.

1.6. أهداف المؤتمر:

كان هذا الملتقى الثاني في سلسلة الملتقيات العلمية الوطنية والدولية لدراسة كل ماله علاقة بالجوانب الفلاحية في الإقليم الجنوبي بعد الملتقى الأول والذي أطلق عليه أسبوع شجرة التين.

أراد المستعمر الفرنسي أن يصل إلى تحقيق العديد من الأهداف من وراء

هذا الملتقى نوجز أهمها في:

العود محمد الصالح

- إدخال المجال العلمي في فلاحه النخيل بعدما تم إحصاء ما قدره سبعة ملايين نخلة.

- زيادة عدد النخيل وتحسين نوعية التمور.

ولأجل ذلك ركز هذا الملتقى على ثلاثة محاور أساسية:

- المياه الجوفية.
- زيادة الإنتاج وتحسين النوعية.
- الاهتمام بالجانب التجاري مع التركيز على عملية التسويق والتنويه بضرورة تكوين الفلاحين.

بالإضافة إلى عرض خاص بطرق التعليب وأنواعه خلال أيام الملتقى.

2.6. مجريات المؤتمر:

افتتح المؤتمر بداية من الساعة التاسعة والربع صباحا بالكلمة التي ألقاها الحاكم العام التي شجع فيها الحاضرين ونوه بأهمية أعمالهم، وتمنى لهم تحقيق نتائج ملموسة في مجال تطوير الفلاحة الصحراوية كمًا ونوعًا.

شارك في المؤتمر 46 أستاذًا متخصصًا بقيادة لجنة تنظيم متكونة من:

- مدير شركة السكك الحديدية بالجزائر "م. روزو" (M. Rouzaud)، رئيسا للجنة التنظيمية.

- المدير العام للأقاليم الجنوبية الرائد "مينيه" (Meynier) كنائب لرئيس لجنة التنظيم.

- المهندس الزراعي والمسؤول العام على الزراعة في إقليم الصحراء "لومي" (Loummi) كمفوض للملتقى.

- المهندس الزراعي والمستشار الرئيسي للفلاحة في إقليم الصحراء كنائب للمفوض العام.

- دور المؤسسات السياسية والعسكرية الفرنسية في عملية الاستشراق بالجزائر
- الأمين العام للمؤتمر "كرغومار" (Kergomard) المدير التجاري للمنتوجات الفلاحية بإقليم الصحراء.
 - نائب الأمين العام للمؤتمر "بيل" (Bille) وهو مختص كذلك في المجال التجاري للمنتوجات الفلاحية الصحراوية.
 - "لوف" (Leva) و"بارنت" (Parent) وهما مفوضين عامين مسؤولين على عملية الحفظ والتعليب.
 - بالإضافة إلى رئيس دائرة مدينة بسكرة "كازيناف" (Cazenave) ونائبه "روزي" (Rozis) بالإضافة إلى العديد من الشخصيات الجزائرية مثل شيخ العرب ببسكرة بوعزيز بن قانة.
 - حضر أيضا المسؤولون العسكريون السامون لمدينة بسكرة وتقرت ووادي سوف وورقلة وأولاد جلال. أما المسؤولين الإداريين فقد حضر للمؤتمر أكثر من خمسين شخصية متعددة الاختصاصات منهم المهندسين الزراعيين والمختصين في المياه الجوفية والمختصين في عملية التسويق والتعليب و مسؤولو البنوك والعديد من الشخصيات الفرنسية التي حضرت كضيوف شرف.
 - شارك في المؤتمر ستة وأربعون استاذ متخصص بأربعة و ستون مداخلة علمية مصحوبين بتقارير وبحوث ميدانية وصور توضيحية وجداول وإحصائيات.
 - تناولت المداخلات العلمية كيفية استغلال وتسيير الأراضي الجنوبية الصحراوية وتنظيمها.
 - كيفية استخراج المياه الجوفية واستغلالها بأسلوب علمي يكون له تأثير إيجابي على الإنتاج الزراعي كمًا ونوعًا.
 - تحديد أجود المناطق الصحراوية والأراضي الصالحة لغراسة النخيل وذلك عن طريق خرائط وصور جوية.

العود محمد الصالح

- دراسة مناخ الإقليم الصحراوي و توضيح كيفية التأقلم مع خصائصه واستغلال مميزاته لتحسين الإنتاج.

- تناولت العديد من المداخلات مجالات الأسمدة والأدوية التي يمكن استغلالها وكيفية صناعتها ودورها في مجال تحسين إنتاج التمور وذلك بالقضاء على الأمراض والطفيليات التي تصيب النخيل.

- البعض من المداخلات تطرقت إلى عملية التعليب والتسويق ودور البنوك في كل ذلك.

ومن الأمثلة على هذه المداخلات نذكر ما يلي:

- "سافورنان" المياه الجوفية الصحراوية. (Compte rendu, 1931, p.17)

- "رام" التنقيب الارتوازي واستخراج المياه الجوفية. (Compte rendu, 1931, p.49)

- "بيانفوني" عرض حول التشريعات والقوانين الخاصة باستغلال الماء وتسييره. (Compte rendu, 1931, p.84)

- "لومات" اقتصاد الماء بالواحات الصحراوية. (Compte rendu, 1931, p.108)

- "لاसार" الصفات والخصائص المناخية لناحية غراسة النخيل. (Compte rendu, 1931, p.131)

- "فيلارس" استعمال الكهرباء بالواحات الصحراوية. (Compte rendu, 1931, p.171)

- "لومات" المبادئ الأساسية لتطوير طريقة جني التمور. (Compte rendu, 1931, p.181)

- شيخ العرب بن قانة الوضعية الثقافية العامة لزراعة النخيل بمنطقة الزيبان. (Compte rendu, 1931, p.196)

- القائد العسكري "بيدالو" الانفجار الفلاحي لزراعة النخيل. (Compte rendu, 1931, p.206)

دور المؤسسات السياسية و العسكرية الفرنسية في عملية الاستشراق بالجزائر

وتواصلت المداخلات العلمية كلها في مجال الاسمدة الكيمائية وكيفية استغلالها وكيفية استخراج المياه الجوفية وحسن و عقلانية استعمالها، ومداخلات خاصة بكيفية اختيار أحسن الأراضي في المنطقة التي تصلح أكثر لغراسة النخيل.

كما كانت مداخلات عديدة أخرى من طرف رجال البنوك تناولت كيفية المشاركة في الإنتاج والتسويق، بالإضافة إلى البحث عن أحسن وأجود الأدوية التي تدخل في علاج بعض الأمراض التي تصيب النخيل وتؤثر على الإنتاج.

الجدير بالذكر أن هذا التقرير المفصل لأسبوع التمور تناول في فصله الأخير بيليوغرافيا للعديد من الوثائق الأرشيفية وكتب خاصة بالمجال الفلاحي تناولت أبحاث وتقارير خاصة بإنتاج التمور في إقليم الصحراء.

تناول التقرير نماذج من بعض التساريح التي أمضاها الحاكم العام لبسكرة لإنجاز آبار ارتوازية تتضمن القوانين والشروط التي تضبط حفر الآبار بالمنطقة.

أنهى المؤتمر أعماله في اليوم الأخير من أسبوع التمور بزيارات ميدانية للعديد من الواحات، وقام الوفد بحضور تجربة غرس بعض فسائل النخيل بواحة طولقة وتقديم عرض حول كيفية اختيار نوع الفسائل والتحدث عن نوع التربة ونوعية كمية المياه المستعملة ونوعية وكمية الأسمدة التي تحتاجها عملية الغراسة.

قيل سابقا أن الاستشراق هو أن تكون شرقيا، وهذه وجهة نظر غربية وبدعم وتوجيه من الكنيسة قصد بذلك أن تعرف الفكر الشرقي وتلم بكل محاوره، بل يتعدى ذلك إلى معرفة طريقة تفكير الفرد الشرقي. ومن دون شك لم يكن ذلك بهدف علمي بحث بل كان ذلك جزء من صراع وتنافس وتسابق على الريادة والسيطرة التي يبحث عنها العالم الغربي باستمرار.

بعد تراجع نفوذ الكنيسة وفقد سيطرتها على المجتمع الغربي وصار التحكم في المؤسسات السياسية والعسكرية، التي تحكم بدورها في المؤسسات الاقتصادية الكبرى، سار الاستشراق نحو فضح الأهداف الحقيقية وهي الغزو والسيطرة.

فالمثالان اللذان طرحا في المقال بينا بشكل جلي كيف كان للمؤسسات العسكرية والاقتصادية الدور الكبير في الاستفادة من أساليب وخطط وأبحاث أسلافهم لتسهيل عليهم عملية السيطرة والتحكم من جهة، ولتسهيل عليهم استغلال ثروات الشرق إلى أبعد الحدود من جهة أخرى.

إذن الاستشراق في شكله الأول ورغم ادعائه بالبراءة وفي شكله الثاني ورغم ادعائه بنشر الحضارة فهو استعمار خالص هدفه التحكم والسيطرة والاستغلال البشع.

دور المؤسسات السياسية و العسكرية الفرنسية في عملية الاستشراق بالجزائر

قائمة المراجع:

- إدوارد سعيد، الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق، ت. محمد عناني، دار بنجوين العالمية، 1995.
- عبد المتعال محمد الجبيري، الاستشراق وجه الاستعمار الفكري، دراسة في تاريخ الاستشراق وأهدافه وأساليبه الخفية في الغزو الفكري للإسلام، مكتبة وهبة، مصر، 2001.
- يحيى مراد، معجم أسماء المستشرقين، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2004.
- المعجم الوسيط، ج 1، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، 1960.
- Jean Baradez, Fossatum Africae, Arts et métiers graphiques, Paris, 1949.
- Compte rendu de la semaine du dattier, 5 au 11 novembre 1931, Alger, 1931.